الذكرى الأولى:

شكيب الشـــاعر

للشيخ محمد رجب البيومى

— ١ —

« لو لم يكن شكيب كاتباً فريداً لكان شاعراً مجيداً ؛
فهما كفتان كلما رجحت الواحدة شالت الأخرى »

المنفلوطى

مات أمير البيان .

منذ عام كامل(١) حرجت الصحف على قرائها بهذا النبأ الفاجع فأشملت القلوب حسرة ، وأرمضت الجوانح لوعة ، ولقد سقطت من عيني عبرات محرقة ، كأنى أطالع نعى صديق حبيب ، تصلنى به وشائج القرابة والصحبة ولا عجب فى ذلك ، فقد تتلمذت سنوات عديدة على أمير البيان ، أدرس كتبه فأستفيد ، وأحفظ قصائده فأنتفع ، كما أنظر إلى مواقفه الرائعة فى نصرة القضايا العربية ، فأتمنى أن يوجد بين زعماء الشرق من يقتفى أثره ، وينسج على منواله فى التضحية والفداء .

ولقد شعرت بحنين زائد ينازعنى إلى الكتابة عنه ، فكنت أسائل نفسى ما عسى أن أقول فى هذا الرجل ، وقد كان أمة وحده تسمى وراء العظائم ، وتضطلع بما تنوء به شم الفيالق ، وهو فوق ذلك بحاثة قدير تسير مؤلفاته مسير الشمس فى الكون ، وناثر موهوب تتزاحم عليه المعانى الفائقة فيختار منها كل جيل فائق ، وشاعر مطبوع تتطامن له رقاب القوافى ، ويسلس لديه كل أبى جموح .

غير أن الذين تكلموا عنه طيلة العام الفائت لم يتعرضوا إلى شعره الرائع بما ينبغى أن يلم به كل متحدث عن الأمير ، وكأنى بجهاده السياسى ، ونثره الملى ، قد طغيا على ما تغنى به رحمه الله من فاتن النظم ، وبارع القصيد ، لذلك رأيت أن أتحدث عن فنه الرفيع ليعلم من يتشدقون اليوم بالهراء الغث كيف يكون القريض العربى فى ديباجته المشرقة ، وطلاوته الجياشة ، وليدرك القارىء هذا الفرق الواضح بين من يحافظ على عربيته الخالصة ، ولهجته الأصيلة ، وبين من يضله الله على علم ، فينقل ما وعاه من دواوين الفرنجة ، دون أن يشعر باحساس صادق لما يقول ، ويزيد فيجعل لغته قلقة مفككة تنادى على نفسها بالويل والثبور .

ولقد نشأ الشاعر فى أسرة عربية عريقة يتصل نسبها بالنعمان ابن المنذر عظيم الحيرة فى عهدها البسام ، فلا غرابة إذن حين نجد الأرسلانيين مفطورين على الطبائع العربية التى تحدث عنها تاريخنا المجيد ، من حب للمروءة ، وذود عن الحياض ، وتعلق بالشعر يسمعه العربى ، فتهتز أعطافه مرحا ، ويرقص قلبه طرباً على موسيقاه ، لأنه يفصح عن ذات نفسه أصدق إفصاح .

وسيصدق القارىء كلامى هذا حين يعلم أن الأمير شكيبا وأخويه الأميرين نسيباً وعادلا قد تركوا للشعر العربى كنزاً ثميناً يمتز بفرائده ويباهى بلآلئه وما ظنك بأشقاء ثلاثة فيهم الصبابة الصناع ، والذواقة الفن ، والطائر الصداح

وقد ولد شكيب بعد أخيه نسيب بسنة ونصف فنشأ كالتوأمين دخلا المدرسة معاً ، وتخرجا معاً ، وبدت مخايل شاعريتهما فى سن مبكرة ، وهل سمعت أن شاعراً نشر قصائده فى الصحف وهو فى الرابعة عشرة من عمره قبل شكيب ؟ وهل سمعت أن شاعراً كان الأول فى مسابقة شعرية عامة ، وهو فى السادسة عشرة قبل نسيب ! ؟ كل هذا كان بفضل الوهبة الشعرية التى أنتقلت إليهما عن طريق الوراثة ، والتى ترعرعت بما حفظاه فى عهد الحداثة من شعر جيد ، قد ارتقى بهما درجات فى سلم الكمال .

على أن القدر قد ساق إليهما فى ذلك العهد الشيخ محمد عبده إذ كان أستاذاً فى المدرسة السلطانية ببيروت ، فدلهما على شعر البارودى وهو كما نعلم إشراق لفظ وجودة معنى ، حيث أكبا على قصائده حفظاً واستظهاراً . ولا تسل عما يفعله الشاعر المعاصر فى أبناء جيله ، فهو يقرب إليهم البعيد ، ويدنى منهم الشاسع ، كما يخلق فيهم الرغبة الملحة فى الارتقاء إلى منزلة ، والصعود إلى ذروته ، ومن هنا كان ساى نهراً صافيا فاض عليهما فى بيروت بالنمير العذب كما فاض على شوقى وحافظ بوادى النيل .

ولقد كان أثر البارودى فى شكيب أوضح منه فى نسيب ، فإنه جذب الأول إلى من يشابهونه من شعراء بنى العباس ، فكان قنطرة عبر منها الأمير إلى البحترى والمتنبى والشريف وأخيراً ممن قطف رب السيف والقلم أزاهيرهم الناضرة ؛ أما نسيب فقد عكف — كما يقول أمير البيان — على قراءة شعراء المعلقات ومن لف لفهم من المخضرمين والأمويين ، فجاء لفظه بدوياً وخياله جاهلياً

(١) كانت وفاة الأمير فى ٩ ديسمبر ١٩٤٦ .

وأنت حين تقرأ له تحتاج إلى غير قليل من التريث والاطمئنان ، على أنه قد يتأثر بالبارودى فتراه وسطاً بين الجزالة والسلاسة كأن يقول فى فقير بائس .

يجد أديم الأرض خدا كأنما   له قبل الغبراء ثأر مخاف
جبين بعرقص الصبيب مضمخ   وشعر بعلتص الغبار مناف
وجيد خفوق الأخدعين كأنما   تبينت من أوداجه الدم ينطف
إذا زلزلته سرعة الخطو أوشكت   أضالعه فى زوره تتقصف
كأن أزيز الجوف عند وجيبه   حسيس هشيم والمدى يتوكف
يساقط نثر الطين عنه إذا مشى   كما نفض ختم الدن سكران مدنف
كأنى به إذ فرق الترب والحصى
يفتش هل فى باطن الأرض منصف
إذا استنجد الآمال عند اكتئابه
تبدى له ستر من القار مغرف

وعلى كل فقد كان أمير البيان أكثر توفيقا فى هيامه بالشعر العباسى وحده ، فقد نضح عليه من العذوبة والرقة ، ما جمل شعره حبيباً إلى نفوس قرائه . ومن نعم الله على شكيب أن هيأ له الأسماع التى تصيخ معجبة إلى إنتاجه من يوم أن عرفته العربية أديباً يافعا يتنقل بين حجرات درسه فكان لا ينشر فى الجرائد — مع حداثة عمره — قصيدة إلا تردد صداها فى ربوع الشام ، ولقد شجعه هذا على المضى فى سبيله ، فاستمر يظهر للعيون قلائده من حين إلى حين ، وما بلغ السابعة عشرة من سنه ، حتى جمع ما نشره متفرقاً فى الصحف بديوان صغير أسماه الباكورة ، وقد جعل إهداءه للأستاذ الإمام ، متودداً إليه فى تواضع ، معترفاً بضآلة هديته فى جانب ما يليق أن يهدى إلى حكيم الإسلام فهو يقول فى اهدائه .

هى دون ما يهدى إليك وطالما   قبل الكبير هدية من صاغر
أهديتها لا كى تليق وإنما   مثلى على ما فاق ليس بقادر

ومهما يكن من شىء فقد كان لظهور الباكورة رنين فى مختلف الصحف الشامية ، فهذه تقرظ ، وتلك تنقد ، مما أكسب الشاعر الناشىء منزلة فى القلوب ، والواقع أن فى ديوان الباكورة شاعرية غضة ، تدل على مستقبل زاهر ، إلا أنها — والحق يقال — لا تستأهل هذه الضجة الكبيرة ، إذا قيست بما يقال فى عهدنا الحاضر بعد تنوع المذاهب الشعرية ، ولكنها بالنسبة إلى زمنها السالف جيدة مقبولة ، لأنها محاكاة للشعر القديم فى دقة تدل على نظر ثاقب وفكر حصيف ، على أن الدقة كانت تخون الأمير فى بعض الأحايين ، فيظهر شعره معلناً عن أصله الذى قيس عليه وإليك قوله فى مطلع قصيدة .

بقلبى ما تهمى العيون وتأرق   وللعين ما يبلى الفؤاد ويرهق
وما كنت ممن يرهق العشق قلبه   ولكن من يدرى فنونك يعشق

فهذان البيتان يشهدان أنهما مأخوذان من قول المتنبى .

لعينك ما يلقى الفؤاد وما لقى   وللشوق ما لم يبق منى وما بقى
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه
ولكن من يبصر جفونك يعشق

ومثل هذا التقليد فى « الباكورة » كثير .

وما كاد أمير البيان يتجاوز هذا الدور ويخطو فى العقد الثالث من عمره حتى تمكن من فنه واستوى على قمة مجده ، فصار جيد السبك ، وثاب الخيال ، بعيداً عما يشينه من المحاكاة والتقليد ، ولقد كان مولعا بأستاذه البارودى إلى درجة جعلته يكثر من التفكير فيه ، فصار لا يكتب مقالا فى جريدة أو بحثا فى مجلة ، إلا توجه بشعر سامى ، مبالغاً فى إطرائه ، وتشاء الأقدار أن تقع بعض هذه الكلمات فى يد رب السيف والقلم ، وهو نازح عن عرينه فى سرنديب ، فيدفعه شوق عاصف إلى من يثنى عليه ثم يغلو به الحنين فيكتب إلى الأمير على بعد الدار ونزوح المزار .

أشدت بذكرى بادئاً ومعقباً   وأمسكت لم أنبس ولم أتكلم
وماذاك ضنا بالوداد على امرىء   حبانى به لكن تهيبت مقدمى

ولك أن تتصور فرحة الأمير بكتاب أستاذه ، فقد حقق له أمله الكبير فى التعرف به ، فطفق يحمد الظروف الطيبة التى هيأت له ما يريد ، ثم كتب إليه قصيدة عصماء تشتمل وجداً وتندلع حنانا وفيها يقول .

ألى كل يوم فيك وجد كأنما   طوى جانحاً منى على نار ميسم
حلفت بما بين الحطيم وزمزم   وبالسدرة العليا ألية مقسم
لألفيت عندى دوس مشتجر القنا
وخوضى فى حوض من الدم مفعم
أقل لقلبى فى المواقف هيبة   وأهون من ذاك المقام المعظم

وهذا تصوير جميل يدلك على ما وصل إليه الأمير فى درجات الشعر وأظن الفرق بينه وبين الباكورة بعيد ، فهذا شعر قوى محكم اعتمد فيه الأمير على نفسه وانتزعه من ذات صدره ، فجاء